وعلى كل حال فكلتا الطريقتين لا تمكّن كما اسلفنا من تكثير الصور المأخوذة عن صفيحة واحدة على الورق النوتغرافي. وبسبب ذلك النقص العظيم نرى حتى يومنا طريقة لومبار هذه قليلة الرواج رغماً من كمالها النسبي . والله المسؤول ان يهدي ذوي القرائح الوقّادة الى سدّ هذا الخلل الجوهري في المستقبل العاجل

المذهب الدروينيّ واصل الانسان

لحضرة الاب اسكندر طوران البسوعيّ (تابع)

نسل الانسان واصلهُ

انَّ مسئلة اصل الانسان ذات شأن عظيم ولذلك لا بُدَّ من فحصها فحصاً منفرداً مدقّقاً . انَّ دروين في كتابهِ الاوّل المنون «بأصل الانواع» لم يتعرَّض للبحث عن اصل الانسان قلمًا شاع كتابهُ وتذهب بمذهبهِ بعض تلامذتهِ فتجاوزوا حدودهُ واطلقوا رأيهُ على نسب الانسان حذا هو ايضاً حذوهم وانتمى الى قولهم بعد اثنتي عشرة سنة في كتابهِ «اصل الانسان» وزعم على مثالهم انَّ الانسان بلغ الى حالتهِ من العقل والنطق بمدى الدهور بعد ان مرَّ بسلسلة تحوّلات عديدة وترقّى بالتدرُّج من البهيمة الى حيوان ناطق . ويمثل ذلك بستّة ادلّة هي كما ترى :

١ انَّ بين الانسان وبين ذوات الاثدي من الحيوان شبهاً عظيماً من حيث تركيب الجسم والصورة العمومية ففي كليهما مشابهة في العظام والاعصاب والعضلات ومجاري الدم والاحشاء حتَّى الخ

٢ يستطيع الحيوان ان يُعدي الانسان بعدَّة امراض واوبئة كما انَّ الانسان على عكس ذلك يمكنهُ ان يُعدي الحيوان كما ترى مثلاً في الكلب . وهذا دليل على شبه دمهما

٣ انَّ بعض الحيوان يأنس بما يأنس بهِ الانسان كالقرد مثلاً الذي يستطعم القهوة والشاي والتبغ والاشربة الروحية وبهِ يثبت انَّ لكليهما ذوقاً واحداً ومعدة متشابهة

٤ يرعى اجسامَ ذوات الثدي الكبرى والبشر عدّةُ حشرات متطفّلة تتشابه جنساً ان لم تتشابه نوعاً

٥ انَّ التطفلة البشريّة ونطفة الحيوان في بعض تطوُّرهما كأجنّةٍ في بطن الامّهات لا تكادان تختلفان صورةً ومادّةً . وهذا الامر يعدّهُ الدروينيّون كاحد الامور الجوهريّة في تأييد مذهبهم

٦ انَّ لكلّ ذوات الثدي وفي جملتها الانسان في بعض انحاء اجسامها الخارجة او الباطنة شيئاً من الاعضاء الأثريّة الدالّة على انّها اماّ بقايا بعض الاجهزة التي بطل استعمالها قبل تطوُّر اصنافها واماّ هي اعضاء جديدة سوف تقوى وتبلغ يوماً كمالها

هذه هي الادلّة التي استند اليها دروين وفيها من ظواهر الحقيقة ما لمأَّهُ يؤثّر في عقول البسطاء ويدفعهم الى الانضواء الى رأيهِ في اصل الانسان فدَعْنا نسبر بميزان العقل هذه الادلّة ونبحث عن حقيقتها الوهميّة فنقول :

انَّ الادلّة الاولى الاربعة تعود الى دليل واحد لا غير لأنَّ من الدليل الاوّل تشتقّ الادلّة الثلثة التالية ويمكننا تفنيدها بهذا الجواب الاجمالي: ان كان الله عزّ وجلّ قد شاء بعنايتهِ ان يكون جسم الانسان شبيهاً بصورة الحيوان من حيث هيكلهِ ومشاعرهِ واجهزتهِ فبديهيٌّ انَّهُ اراد ايضاً ان يكون التشابه في الدم والاحشاء والمعدة الخ كما اراد ايضاً ان يكون بينهما تشابه في الأمراض والذوق والحشرات المتطفّلة . . .

اماّ الدليل الخامس فلا نتّسع بتفنيدهِ لأن ذلك من امور الاختصاصيين . على انّنا نستطيع القول بان هذا التشابه بين الاجنّة ليس هو ثابتاً لأنَّ هيكلاً حاول اثبات قولهِ في ذلك زوّر صور الاجنّة وبيَّن العلماء كذبهُ وخداعهُ (المشرق ١٣ [١٩١٠] ٧١٩) — فلكي نجيب على دليليه الباقيين الاوّل والسادس هاّ نحن نبسط الكلام في تلك الاعضاء الاصليّة الاثريّة وفي التحوُّلات التي يزعم دروين انّها كانت المسبّبة لها ثمّ نعتبر الاختيار التناسليّ الذي يدّعي دروين انهُ اكبر عامل لتلك التحوُّلات والترقيات واخيراً نبحث عن الشبه الموجود بين جسم الانسان وجسم الحيوان (١

١) النصوص التي ننقلها عن دروين اخذناها عن الطبعة الثالثة من ترجمتها عن اصلها الانكليزيّ (الطبعة الثانية) بقلم المسيو ادمون بريه (Ed. Barbier)

١ الاعضاء الاثريّة ومذهب التحوّل

قال دروين : « لا مراء في انّ لكثير من الحيوان اعضاء غير تامّة البنية يمكن الاستدلال منها انّها موروثة من اجداد سابقين فضمرت وضعفت لقلّة الاستعمال. مثال ذلك ان لبعض ذوات الثدي كاصابع أثريّة تُرى في الكلب والحصان »

ونجد في الانسان نفسهِ بعض الاعضاء الخارجة او الباطنة الضامرة التي يتوهّم الناظر اليها انّها آثار لحالة سابقة وُجد فيها فمن ذلك تركيب الآذان والزغب المنتشر على الجسم والمعاقم اي الفقرات في اسفل سلسلة الفقار. أليست هذه الآثار في الحيوان والانسان بقايا اعضاء اضحت اليوم دون جدوى وصورًا لأجهزة سابقة تمّت او لأجهزة مستقبلة سوف تتكوّن في الاجسام؟ والّا فما هي يا تُرى الفائدة من هذه الاعضاء الزائدة؟

قبل ان نجيب على اعتراض دروين في هذه الاعضاء الاثريّة المتمّمة او المتحوّلة على قولهِ دَعْنا نتقدّم على ذلك ملحوظًا عمومياً. الى اي شيْ يستند دروين واصحابهُ في زعمهم ان هذه الاعضاء الاثريّة موروثة من اجدادٍ سابقين وانّها قد تمّت بتمادي الزمان او انّها مبادئ اعضاء مستقبلة؟ اليس تفسيرهم هذا احد اوهامهم المحمولة على التخيّلات دون الوضعيّات المعهودة؟ فلو كان مذهب التحوّل مثبتاً بالبراهين القنعة لأمكنهم ان يؤيّدوا تلك البراهين بهذه الادلّة . اماّ ان يجعلوها اساس مذهبهم فذلك مخالف للنظريّات وللقياس المنطقي

ثمّ ان صحّ افتراضهم انّ تلك الاعضاء موروثة من الاجداد وجب عليهم ان يبيّنوا لايّ سبب بعد ضعفها وضمورها لم تبلغ القوى الطبيعيّةُ الى نفيها وملاشاتها مع انّهم ينسبون الى تلك القوى القدرة على توليد اعضاء جديدة. وكذلك افتراضهم انّ هذه الاعضاء الاثريّة هي اصول اعضاء سوف تكمل في المستقبل مبنيٌ على الوهم اذ ينسبون الى الطبيعة العمياء العمل لغاية معلومة ومقصودة من سابق الازمنة وهذا يتجاوز طور المذهب الدروينيّ القائل بالانتخاب الطبيعي لأن العمل لغاية يدلّ على عقل فائق الطبيعة يرشدها الى تلك الغاية

ثم يمكننا القول مع بعض الكتبة انّ هذه الاعضاء التي نراها عقيمة دون جدوى

في حياة الانسان البالغ لا يُستبعَد انها مفيدة للمولود في طور حياتهِ كجنين في بطن امهِ لانَّ تلك الحياة سرٌّ غامضٌ لم يدرك العلماء حتَّى الآن دقائقهُ

وقد اعترف دروين عينهُ في كتاباتهِ الاخيرة انهُ في تآليفهِ السابقة نسب الى الاختيار الطبيعيّ قوَّةً زائدة قال (ص ٦٥ من كتابهِ في اصل الانسان) عن هذه الاعضاء الاثريَّة : « انهُ لمن المحتمل كما يظهر لي اليوم انَّ في تركيب كلّ الكائنات ذات الاجهزة الآلية ومن جملتها الانسان بعضَ الخواصّ التي ليس منها فائدة في الحاضر ولا في الازمنة السالفة ولا اهميَّة لها فيزيولوجيَّة »

هلمَّ بنا الان نتبع دروين في بعض تفاسيرهِ التي اخترعها لتعليل اصل تلك الاعضاء وما طرأ عليها من التقلُّبات وما بقي من آثارها . فمثَّا ضربهُ مثلًا على ذلك الثُّدوتان الظاهرتان في صدر الذكور من ذوات الثدي فيزعم انَّهما كانا في الاصل ثديَيْن كاملين كما في صدر النساء يرضعون بهما مثلهنَّ صغارَهم لكنَّ الذكور أهملوا ذلك وخصُّوهُ بالنساء فصغر في صدورهم حجمُ الثديين فأصبحا ثدوتَين . وهو تفسير عجيب لا اثر لهُ في علم الطبيعة وقد اتى بهِ صاحب المقتطف في بعض اعدادهِ

ومثلهُ قولًا وهميًّا في ثنايا الحيوانات المجترَّة التي لا تُرى بين اسنانها وهي مع ذلك في مكانها تغطيها اللِّثة فيزعم دروين انَّها اصلٌ لثنايا سوف تظهر يوماً في المستقبل ويزعم — وهذا من باب المضحكات — انَّ الغَفَر اي الشَّعَرات التي تُرى منبثَّةً على بدن الانسان انَّما كانت في اوَّل الامر صوفاً يكسو جسدهُ كبقيَّة الحيوانات . ومثلهُ تفكُّهاً قولهُ ان المآقم التي في اسفل سلسلة الفقرات كانت عَجْب ذنَبهِ الطويل كالحيوان

وان سألتَ دروين وكيف حصلت هذه التحوُّلات فانَّهُ يأتي بأجوبة تُضحك الثكلى وهو يعدُّها كأجوبة مقنعة . فاسمع كيف فقد الانسان صوفهُ الذي كان يوشِّح جسمهُ . ظنَّ دروين بادئ بدء انَّ ذلك لربَّما حصل بفعل الشمس او بتأثير الامكنة التي استوطنها . ثمَّ حدَسَ بانَّ الانسان الاوَّل رأى صوفهُ مأوى للحشرات الصغرى فنبذ ذلك الصوف . وفي آخر الامر ارتأى انَّ الامر حَصل بنتف ذلك الصوف من الجسم لاسيَّما المرأة التي حاولت جرْدَ جسدها تنفُّثاً ورغدًا فجاء نسلها منتوف الشعر مسحوج الجلد

ومن مضحكات دروين ومبكياته شرحُهُ لفقد الانسان ذَنَبَهُ قال (ص ٦):
« على ما يظهر لنا ان الانسان كما القرود الشبيهة بهِ قد فقد ذنبهُ بالاحتكاك او بالجروح التي تعرَّضت لهُ بما لا يُحصى من الدهور . ثمَّ انَّ عَجْب الذَنَب صَغُر وتضاءل في البدن فدقَّ حجمهُ وتغيَّرت هيئتهُ ليصبح مُناسباً لانتصاب القامة في الانسان او لنصف انتصابها في القرد »

ولعلَّك تتصدَّى لدروين وتقول لهُ : ان كان الاحتكاك او الدَّحج قد كفيا لازالة ذَنَب الانسان فكيف ثبت الذَنَب في الكلاب والهِرَّة وكلاهما يقعد عليهِ غالباً ؟ فمن اين الاختلاف ؟

وعلى رأي دروين ان طيَّاتِ الآذان وغُضونها الخارجة الصَّدَفيَّة الشكل هي اعضاء اثريَّة كانت سابقاً طويلةً متطرِّفة وذات حركة كالحيوان فأُصيبت بأذًى ما فقصرت واصبحت ساكنة اخفَّ سمعاً من البهيمة

وكذلك الشمّ فانَّ الانسان فقد شيئاً من حدَّتهِ التي تُرى في البهائم . وذلك على قول دروين لأن الحيوان في غاية الحاجة الى حاسَّة الشمّ ليُرهق صيدهُ وليتَّقي عدوَّهُ وان سألت دروين : وما سبب ضعف هذه الحاسَّة في الانسان ؟ اجابك : لأنها اقلّ فائدةً لهُ . يا للجواب المضحك ! وكيف تزعم ان القوَّة الشامَّة اقلّ فائدةً للانسان وانت تفترض الانسان في فطرتهِ الطبيعيَّة أنما كان اليها في حاجة ماسَّة لطلب قوتهِ ولادراك رائحة عدوِّهِ ؟ . ألا ترى انك تجعل الانسان ادنى من الكلاب التي امتازت بشمّها العجيب بل ادنى من كلّ الحيوانات التي تمتاز بشامَّتها قُوتَها فتختار صالحهُ وتحيد عن ضارِّهِ ؟

وان شئتَ ان تعلم كيف يشرح دروين انتصاب الانسان على رجليهِ على خلاف الحيوانات الدابَّة فأَصغِ سمعك الى هذه الفكاهة الجديدة قال :

« رأى الانسان انهُ لا يقوى على السَّيطرة الَّا اذا استعان بيديهِ واتخذهما كآلتين توافقانهِ مذعنتَيْن لإرادتهِ . . . على ان ذلك ما كان ليتسنَّى لهُ الَّا ان يخصَّ يديهِ باعمال تمرينيَّة كإعداد الاسلحة ورمي الحجارة ورشق السهام الخ . وذلك كلُّهُ كان يستدعي ان يلقي بثقل جسمهِ على ساقيهِ ورجليهِ . . . وناميك بهذا السبب تعليلاً لاختيار الانسان لانتصاب قامتهِ . ولكن يوجد اعمال كثيرة اخرى تضطرّ الانسان الى تحرير ذراعيهِ وهيئة صدرهِ واعلى جسمهِ

ليستقرّ على رجليهِ ثابتًا . ولكي ينال هـذه الغاية المرغوبة قد انبسطت رجلاهُ وانتصبا ثمَّ تغيَّرت صورة اجام الرجل فلم يعد يستطيع الانسان ان يقبض برجلهِ شيئًا »

فيا لها من شروح عجيبة غريبة بل من سفاسف تافهة ! كيف أمكن دروين ان يفرضها على قرَّائهِ بلا مزاح ! فانهُ اعتبر الانسان كقردٍ اوسع فهماً من رصفائهِ فخصَّ نفسهُ باعمالٍ دقيقة أدَّت بهِ الى ان يمشي منتصباً . فكم هناك من المستحيلات التي رضي بها دروين دون ان يسندها الى سبب معقول . وما لهُ لا يثبت صحَّة قولهِ بتربية صغار القرود لتفوز كأسلافها بمزايا البشر كما فعل بعض المتوسّمين في هـذه السنين الاخيرة فما ادَّت مساعيهم الَّا الى الفشل والخيبة وربَّما عرَّضوا نفوسهم الى شراسة اولئك الحيوانات الكريهة كما حدث لملك اليونان الذي ذهب ضحيَّة موانستهِ لقردهِ

ولعلَّك تريد ان تقف على الحلقات التي وجدها دروين ليثبت تناسل الانسان من القرد . وقبل كلٍّ يجب ان نروي اقرارهُ بانهُ حتَّى اليوم لم يمكن احدًا ان يبيّن وجود حلقةٍ تجمع بين العاقل وغير العاقل فانهُ يكرّر ذلك غير مرَّة . قال (ص ١٥٨) : « انَّ الانسان يتناسل من جنس ادنى من جنسهِ ولو لم نقف حتَّى الآن على الوصلة الجامعة بينهما » . وقال (ص ١٧٠) : « انَّ بين الانسان والنسل السابق الذي تفرَّع منهُ هاويةً عظيمة لم يمكننا بيان الجسر الجامع بينهما سواء كان بين الحيوانات المعروفة حاضرًا او البائدة سابقًا »

ومع اقرار دروين بهذه الحقائق تراهُ يتنطَّع في كلامهِ ويتفيهق ويزعم انَّ الانسان من احد اجناس القرود المفقودة والقرودَ من جنس حيوانات موجودة في جزيرة مدغشكار تُعرف باسم ليموريان (Lémurien) وانَّ الليموريان من جنس المرسوبيو (Marsupiaux) المختصَّة بكيس في صدرها تأوي اليهِ صغارها . وهؤلاء ينتمون الى حيوانات في اوستراليا تدعى مونوترام (Monotrème) وينزل منها الى الاسماك ثمَّ الى دعاميص الضفادع . والدليل على انَّ اصل الانسان الاوَّل من مولودات بحريَّة تأثير القمر في جسمهِ كما يؤثر في مياه البحر وحيوانهِ بالمدّ والجزر . زهٍ ! زهٍ !

فالى هذه الدرجة من الخرافات والترَّهات يبلغ بعض العقلاء اذ يصمُّون آذانهم دون صوت الوحي ففي كلّ بيداء يهيمون . واذا عجزوا عن فكّ الاعتراضات التي يقدّمها لهم خصومهم لا يجيبون بغير تكرار اعتقادهم بمذهب التحوُّل والترقي

فيطلبون من مشايعيهم ان يذعنوا الى كلامهم ويقبلوهُ مطيعين لحكمهم طاعةً عمياء.

وربَّ سائل يسأل ان كان دروين متشبثاً بمذهبهِ هذا المنافي للحقائق الثابتة فما كان يا تُرى معتقدهُ في آخر حياتهِ عن وجود الخالق وخلود النفس وعن وحدة او كثرة النوع البشري؟

لا شكَّ في ان دروين قرَّر دون تردُّد وحدة جنس الانسان مع اعترافهِ بصنوفهِ المختلفة كما انَّ للنوع الواحد من الحيوان ضروباً مختلفة تدلُّ على اصلها الواحد ويثبت دروين رأيهُ بقولهِ (ص ٦٦٠) «انَّ بين عناصر البشر المتباينة تشابهاً من وجوه شتَّى سواء كان في تركيب اجسامهم ام في خواصهم العقليَّة حتَّى انهُ لا يجوز مطلقاً ان ننسب تلك الخواص الى غير وحدة اصلهم واكتسابهم تلك المزايا بالوراثة»

ولعلَّك تسأل وكيف يوفق دروين بين عقيدة وجود الله الخالق ومزاعمهِ في ذاك الترقي الطبيعي في طبقات الحيوان من اوهامها الغريزيَّة الى النطق والادراك؟ هذا شيء لا يوضحهُ صريحاً وما لا ريب فيه انهُ يعتقد وجود الله ويعترف بهِ خالقاً. ومما يثبت قولنا ما نُقل عنهُ (ص ٩٩) اذ يُلقي على نفسهِ هذا السؤال الآتي: هل اعتقد الانسانُ بادئ بدء وجود الله؟ فقبل ان يجيب على هذا السؤال يروي اقوال بعض ارباب الاسفار عن شعوب همجية زعموا انَّ ليس في لغتهم كلمة للدلالة على الله (١ ثمَّ يردف دروين قائلاً: «ولا حاجة الى تنبيه القرَّاء على انَّ سؤالنا عن معتقد الانسان الاوَّل وبعض الشعوب بوجود الله يختلف عن سؤال آخر أعلى درجةً وارفع مقاماً اعني حقيقة وجودهِ تعالى التي اجمعت في كلِّ الازمنة العقول النيِّرة على اثباتها بالايجاب»

كذلك قد صرَّح دروين عن اعتقادهِ لخلود النفس فمن جملة ما تفوَّه بهِ قولهُ (ص ٦٧١): «بديهيٌّ ان يتساءل ذاك الذي يرتابُ ترقي الانسان من الحيوان كيف نوفق بين هذا الرأي مع خلود النفس؟... لكن أيَّة حاجةٍ لنا ان نعرف بتدقيق في أي زمن من اطوار حياتهِ يُضحي المولود خالداً سواء كان ذلك قبل ميلادهِ او بعدهُ. فليس في جهلنا ذلك في مسير حياتهِ الراقية ما يوجب القلق... وكما انَّ

١) قد فنَّد كثيرون من المرسلين الكاثوليك هذه الرواية وبيَّنوا اعتقاد أبعد الشعوب من الحضارة والتمدُّن بوجود الله يدعونهُ باسماء مختلفة ويتصوَّرونهُ على صور شتَّى

عقلنا لا يستطيع تحديد زمن تطوُّر الانواع وتحوُّلها من طبقةٍ الى اخرى كذلك في حياة الافراد ظواهر متعدّدة يعسر علينا تميز خفاياها ولا يرضى العقل بنسبتها الى مفعول قوّة عمياء »

فهذا كلام لا يمكن تفسيرهُ الّا بان يقال انَّ للخالق عزَّ وجلَّ فعلهُ الخاص في اطوار حياة الانسان وانهُ هو الذي ينفخ النفس البشريّة بجلودها وان كنّا نجهل بالتدقيق في اي زمن من حياتهِ ينال الولد تلك النفس الخالدة

فهذه النصوص التي رويناها لدروين تبيّن انَّهُ في اواخر حياتهِ ثبت على اعتقادهِ بوجودهِ تعالى وبخلود النفس وانهُ لم يجنح الى مذهب الماديّين وان كان اتّسع في رأيهِ عن تحوُّل الانواع وترقّيها وبلغ الى القول بانَّ اصل الانسان من جنس القرود. وهذا ايضاً ما اعلن بهِ الانكليز مواطنوهُ لمّا احتفلوا قبل بضع سنين بتذكار مولدهِ المئويّ فاقاموا لهُ حفلات مدنيّة ودينيّة معاً اشارةً منهم انَّهم لا يعتبرونهُ كأحد جحَدة اللاهوت والكفّار. كيف لا وهو القائل : « اني ما كنت مطلقاً زنديقاً ولم انكر وجود الله . . . واظنّ انَّ مذهبي في النشوء والترقّي ليس بمناقض لحقيقة وجود الله »

٢ الانتخاب التناسلي وتأثيره في الحيوان

احسَّ دروين بضعف حججهِ لتأييد مذهب النشوء والتحوُّل ولذلك اطال الكلام في كتابهِ عن اصل الانسان وجمع كلّ ما امكنهُ من التغيرات الواردة في الحيوان ولاسيَّما في ذوات الثدي ظنّاً منهُ انهُ يقنع بها القرّاء

وممَّا يجعلهُ في مقدّمة العوامل لاثبات زعمهِ الانتخاب النَّسلي الداخل في ضمن الناموس العظيم اي الانتخاب الطبيعيّ . ومرجع الانتخاب النَّسلي الى وجود جنسَي الذكر والانثى في عامّة الحيوانات حتّى الهوامّ فيقول دروين قد طُبع الجنسان على ان يجدا تدريجاً قواهما الخاصّة بهما مع بقيّة المزايا اللاحقة بها ليورثاها نسلهما من بعدهما

واثباتاً لهذا القول يأتي دروين بوصف عدد عديد من الاعضاء والاجهزة الثانويّة التي استلزمت الطبيعة بالعموم وجودها او استدعى الافرادُ تركيبها . على انَّ دروين لنزاهة اخلاقهِ وجد كثيراً من الامور التي تخالف اقوالهُ والمبادئ التي وضعها . وها

نحن نثبت شيئاً منها قال : « ان الذكور عادةً اقوى من الاناث لانهم معرَّضون للقتال ولذلك يجب ان يكونوا مسلَّحين ولهذا قد أُعطي اصناف كثيرة من الحيوان اسلحةً دفاعيَّة وهجوميَّة كالقرون في الخراف والانياب في السباع فترى قرون التيوس اطول من النعاج وكذلك انياب ذكور السباع اعظم من انياب الاناث . لكنَّ هذه القاعدة لا تصح كما لحظ دروين عينهُ في قرون المعز الملتوية الى الوراء غير الصالحة للمقاتلة . وكذلك الايائل فانَّ قرون ذكورها آفةٌ لها في الحرب لافراط طولها فتنشب في الادغال وتشتبك بقرون اخصامها . فلا يستطيع دروين ان يطبقها على قاعدته الا بقوله ان تلك فلتات الطبيعة او غاية تلك القرون الزينة لا التسليح والقتال

وربَّما يجد دروين تقصير الانتخاب التناسلي في بلوغ غايته فينسب للحيوان نظرًا سابقًا وسعياً وراء غاية مقصودة كقوله عن ظبي ذي قرون مرؤسة حادَّة : « انَّ الظبي الاوَّل الذي خُصَّ بقرون محدَّدة اصاب ذلك صدفةً من الطبيعة الَّا انَّهُ رآها مفيدة فأورثها نسلهُ من بعده » (ص ٥٦٣)

وقال ايضاً : « انَّ الاصوات الرخيمة والريش الفاخر في الطيور قد حظيت بهما الذكور دون الاناث وذلك من مفاعيل الانتخاب التناسلي لأنَّ الذكور نوت بذلك استلفات نظر الاناث واطرابهنَّ عند حضانتهنَّ » ولكن ليس ذلك مطَّردًا وربَّما تساوى الذكور والاناث في كُمْدة الالوان او شبهها فكيف يفسِّر دروين ذلك ؟ انَّ هذه الاعتراضات لا تعيق دروين فانَّهُ يرى لكل شيءٍ جواباً ساء او حسن . فاسمع : « انَّ لبعض الطيور الواناً كئيبة لانها ما وُجدت في احوال توجب تغيير تلك الالوان او لأنَّها تفضِّل الالوان البسيطة كالابيض والاسود على سواهما . ولربَّما حصل ذلك بالانتخاب النسلي فاختارت الطيور تلك الالوان القاتمة لتأمين حياتها من العدوّ » (ص ٢٠٨) . فترى كيف يتملَّص دروين من الاعتراضات على اقاويلهِ وتفنيد قواعدهِ بكثرة شذوذها

وكذلك تتنوَّع شروحهُ على انتقال خواصّ الحيوان من الجدود الى الخلف في اصنافها بالوراثة ذكورًا كانت او اناثًا . فتارةً يزعم انَّ الذكر وحدهُ يورث الذكور من جنسهِ خواصَّهُ كالديك مثلًا اورث الديكة عُرْفهُ ومخالبهُ وتارة يزعم انَّ الاناث ايضاً تنال بالوراثة بعض خواصّ الذكور . وحيناً يقرُّ « بأنَّنا في اغلب الاوقات لا نعلم

لاي سبب تنتقل بعض الخواص بالوراثة الى الجنسين ، مما بينما خواص اخرى لا تنتقل الا الى جنس واحد وهو الجنس الذي ظهرت فيه هذه الخواص لاول مرة » (ص ٢٥٥) . فما لك اذن يا دروين ان كنت جاهلا لاسباب كل هذه الشواذات تبني اقوالك على مبادئ عمومية لا تستطيع تعليلها في مواطن كثيرة ؟

وقد حاول درون ان يبين انتخابه النسلي المزعوم حتى في الحشرات والهوام فيزعم ان الفراشات هي التي باختيار تناسلها استفادت الوان ريشها العجيبة وان الحشرات الغمدية الاجنحة استخارت لها بالتناسل قرونها الرفيعة هذه طويلة وتلك قصيرة وان المتناسقة الاجنحة كالصرصور استلطفت الاصوات الصيتة . وقس على ذلك بقية الهوام التي يتحذق درون في مخيلته ايجد فيها شبها ايا كان ليثبت ارهامه

خذ مثلا الحباحب اي الذبابة الصغيرة ذات السراج اللامع في الليل فاسأل درون ما السبب لهذا النور التي تبعثه الانثى دون ذكرها ؟ يجبك فورا : لان لهذه الهوام المنيرة اعداء في بعض الطيور وصغار ذوات الثدي فتبعث الحباحب نورها لتنجو من شرها ولعلمها بان اولئك الاعداء يكرهون النور ويتشبه بالحباحب على قول درون هوام اخرى لادراك تلك الغاية (ص ٥٠٦) . فترى في كل هذه الشروح كيف ينسب درون للحشرات فهما وادراكا اذ تتوخى وسائط معلومة تبلغها الى غايات مقصودة

دونك مثلا آخر : ان في الغابات وعلى شجرها وتحت اعشابها بقا يعرف ببق الخشب فصنف منه تزين ذكره وانثاه ألوان زهية فما معنى هذه الالوان ؟ يقول درون (اسمع وتمالك عن الضحك) : «معلوم ان هذه الحشرات ذات رائحة خبيثة فتزينت بهذه الالوان الجميلة لتحذر بها الحيوانات التي تحاول التهامها لتعلم انها غير طيبة للاكل» (ص ٣٠٩) اعني انه ينسب لها فهما كانها تقول لعدوها بلسان حالها : اياك ان تأكلني فاني لست لذيذة الطعم

وهذه خنافس نوع منها معدني اللون غاية في الحسن فما الفائدة من اختيارها ذلك ؟ يجيب درون : هذا اللون ان كان لا يفيدها لحماية نفسها ينفعها لتحذير عدوها كالحباحب المنير (ص ٣٣٣)

وما معنى هذه القرون الطويلة المرتكزة في جبهة او منا كب بعض الجعلان فاي غاية قصدت بها تلك الحشرات وهي تعيقها اكثر من ان تفيدها اذ لا

تقوى على دفع عدوها ولا يمكن تعليلها لفائدة سابقة ؟ يقول دروين : « يجب ان نفترض انَّ هذه الحشرات حصلت على تلك القرون لتزدان بها » (ص ٣٢٧) . ما أحلى والطف هذا الشرح في جعلان تعيش في الاقذار والزبل وهي تطلب الحليَّ والزينة لنفسها بوضع قرونها !

ولدروين شروح هزليَّة مضحكة في تعليل الوان الفراشات فكلٌ يعلم ما خُصَّت به هذه الهوام من الالوان البهيَّة المختلفة فدروين يزعم ان كثيراً من صنوفها عمدت الى تلك الالوان الجميلة تتقي نفسها من نهم الحشرات الطالبة أكلها لتحذرها من ذلك لسوء طعمها (ص ٣٤٣) . ويزعم انَّ اصنافاً غيرها تمثلت بها في زينتها لتأمن من اعدائها . ويدّعي دفعات اخرى انَّ تلك الفراشات تخيَّرت لها الريش الملوَّن المصقول لتنجو من اسنان الطيور التي تحطّ عليها ولا تمسّ جسمها واغا تخدش فقط ذلك الريش (ص ٥٤٥)

وان وجد فراشاً ذا ريش قاتم يدّعي انهُ استخارهُ ليتشبَّهُ باوراق الاشجار وقشورها التي يسكن فيها

وكذلك دود تلك الحشرات يدّعي دروين أنها تتفنَّن في تحصين حالها تارةً بان تتَّخذ لها زنبراً شائكاً وحيناً بان تجاري ما حولها من الاعشاب في الوانها الكمدة لئلَّا يراها الطير . وان رآها جميلة الالوان يزعم كما قال عن الفراش ان ألوانها اللطيفة تُوعز الى عدوها بانهُ لا يجد في اكل لحمها لذَّة (ص ٣٥٨) فهي تفعل كبعض باعة الادوية والعقاقير الذين يودعون الادوية المسمومة في زجاجات ملوَّنة تأميناً لحياة العموم لئلَّا يمسُّوها (ص ٣٥٩)

ولم ينسَ دروين الحيَّات وما لبعض اجناسها من الالوان الساطعة . فيروي في كتابه (ص ٣٨١) مراسلة لبعض اهل اميركة الجنوبيَّة الذي افادهُ انَّ هناك اربعة اصناف من الحيَّات الظريفة الالوان ضربان منها سامَّة قاتلة وضربان آخران لا يؤذيان ويصعب على العموم التمييز بين الصنفين . فيستنتج دروين انَّ الصنفين الاخيرين تقلَّدا الوان الصنفين السامَّين ليخدعا بذلك المسافرين فلا يقربون منهما كما يهربون من ذينك الجنسين الخبيثين (ص ٣٨٨)

وهكذا يحاول دروين في شرح كلّ ما يراهُ في الحيوان فينسب اليهِ عقلاً فهيماً

مدركاً لصلاح نفسه طالباً لخيره الوسائل المنجية ومتّخذاً عمداً ما يراهُ اقرب الى تلك الغاية التي قصد ادراكها

وقد ضرب دروين صفحاً عن اخلاق عديدة للحيوان لو تصدّى لها لزادتهُ ارتباكاً وحيرةً وعجز عن شرحها. أما قولهُ مثلاً عن غريزة بعض الهوامّ والحشرات كالعناكب والعقارب التي اثبت العلّامة فابر انّ انثاها اذا حملت هجمت على ذكورها وازدردتها. أفيقول دروين انّ هذا ايضاً من الانتخاب النسلي ؟ لكنّهُ فضّل السكوت عمّا لا يستطيع وجود وجهٍ معقول لشرحهِ . فترى كم وكم من الاوهام والتخيّلات الغريبة تهافت اليها دروين لبلوغ غايتهِ ليثبت في آخر الامر تناسل الانسان من البهيمة. وقد روينا كلامهُ ومزاعمهُ ليحكم القارئ حكماً عدلاً في المذهب الدروينيّ ويقدّر عواملهُ قدرها من الضعف والعجز عن ادراك ما ادّعاهُ لها

وممّا يجب تنبيه القرّاء اليهِ جهل دروين لطباع الحيوان فانّ علماء الطبيعة الذين درسوا اخلاق الحيوانات وغرائزها براقبة حركاتها وسكناتها وباقي شؤون حياتها قد اثبتوا ما لا يُحصى من اعمالها المقدّرة التي هي على طرفي نقيض مع ما رواهُ دروين الذي درس الحيوان في متاحف بلادهِ فقابل بين اشكالهِ الميّتة الجامدة التي رآها هناك منضّدةً منظّمةً على الرفوف بيد احد العلماء فظنّ انهُ تكفيهِ المقابلة بينها ليضع تلك المبادئ العمومية التي توهّم صحّتها وهيهات ان تنطبق مع الحقيقة في شيء

٣ شبه الهيكل البشري وهيكل الحيوانات الفقارية

من جملة البراهين التي يأخذ بها غالباً ارباب مذهب النشوء والمادّيون لينشروا مذهبهم الباطل ما يجدون من الشبه بين هيكل الانسان وهيكل الحيوان فتراهم اذا حاولوا اثبات رأيهم عرضوا بالتصوير في المجلّات وكتب التاريخ الطبيعيّ هياكل البشر والقرود ثمّ هياكل الطيور وذوات الاربع ليأخذ الناظر من الشبه بينها ويعدل الى مذهب النشوء والتحوّل ويحكم انّ كلّ ذلك من فعل الطبيعة العمياء لا دخل فيهِ لعقل فهيم والهٍ حكيم

ساءت ظنونهم وعميت قلوبهم وكان الاحرى بهم اذا وجدوا شيئاً من التشابه بين اعضاء الانسان والحيوانات وبين هيكلهِ وهيكلها ان يرقوا بعقولهم نحو الخالق

فيأخذهم العجب من حكمته وقدرته تعالى اذ اتخذ رسماً واحداً جعلهُ قواماً لما لا يُحصى من الكائنات المختلفة باشكالها الخارجة واخلاقها المتباينة وغرائزها الطبيعيَّة وجمع بين اصول الجمال اي الوحدة والاختلاف معاً فأبدع تنانين من ذوات الفقار في طور العالم الثاني يبلغ طولها ٤٠ متراً وألحقها بانواعٍ عديدة من جنسها لا يتجاوز بعض الباقي منها الى يومنا بضعة سنتيمترات . فانَّ من يعتقد وجود الخالق لا يذهلهُ شيْ مما يراهُ في العالم وتنكشف امام عينهِ تلك الاسرار التي يغمض حلُّها على تبعة دروين. فيدرك الاسباب التي دفعت الخالق على تقديم او تأخير بعض الكائنات وعلى اختيارهِ لتكوين اجناس الحيوانات في ازمنةٍ دون غيرها . وعلى وضعها حين شاء وكما شاء دون ان يجعلها سلاسل متتالية ذات حلقات متواصلة كما يفترضهُ الدرويئيون وكلّ ذلك وفقاً لما ترخَّاهُ الله في وحدة رسمهِ

وقد احاط تعالى بهذا الرسم الوحيد ما لا يُحصى من الحيوانات المختلفة الحجم المتباينة الصورة من زحافات وطيور وذوات أثدٍ واسماك لكل منها نوعاتها وغرائزها المختلفة على اختلاف مواطنها من القُطب الشمالي الى خطّ الاستواء والى القطب الجنوبي مع ما يقتضيهِ حالها في كلّ وسط وفي كلّ مناخ فكم فيها من الصفات والمحاسن التي لا يفي بها احصاء. وذلك كلُّهُ منوط بهذا الهيكل الوحيد الذي لا يكاد يختلف جوهرهُ مع اختلاف هيئاتهِ غير المتناهية والانسان احد هذه الكائنات مبنيّ على الهيكل عينهِ

وهذه الوحدة العجيبة التي تعمَّدها الخلّاق ليست محصورة في الحيوانات ذات السلسلة الفقاريَّة بل يمكن بيانها في الحشرات عينها التي حدَّد العلماء اجناسها وانواعها ورتبها . وبينها ما لا تكاد العين تبصرهُ لصغر حجمها وكلُّها مركَّبة تركيباً يجاري في محاسنهِ تركيب كبائر الحيوان . ويُرى الرسم المذكور في الاصداف النجميَّة الشكل وفي كلّ طبقات النبات وبالاجمال في كلّ الحيوانات المنتشرة على الارض سواء كانت حياتها نباتيَّة او حياة ذات حركة وحسّ كالحيوان او حياة عقليَّة كما في الانسان

وترى في تقسيم الحياة على الارض في كلّ جنس ونوع منها بل وفي كلّ فردٍ من افرادها نظاماً عجيباً ثابتاً . فانَّ لكل هذه الكائنات نواميس مقرَّرة لا تختلف فتجد لكل نبات زهرهُ وبزرتهُ التي تحتوي مهما كانت دقَّتها على قوَّةٍ تبدو للعيان على

صورة شجرة باسقة او شجيرة لطيفة تشبه الشجرة التي تكوّنت فيها البزرة

وكذلك الحيوان فانّه يولد وينمو ويتناسل كل نوع على مقتضى نواميسه الخاصة دون خلل ولا اختلاط . ولكل عضو من اعضاء تلك الحيوانات على اختلافها من اكبرها حجماً الى ادقها جسماً تنسيقٌ عجيب المناسب تماماً الغاية المقصودة منهُ

ومثل هذا النظام والترتيب في مجموع الافلاك الدائرة في الفضاء . فانّ لكلّ هذه الكواكب سيرها على نواميس راهنة لا تحيد عنها ذرّةً حتّى يستطيع الفلكيّون قياسها وضبط حركاتها فيسبقوا الى تعيين ظواهرها قبل وقوعها بزمن طويل

فالماديّون يتشدّقون قائلين انّ ذلك كلّهُ فعلُ الصدفة . وقد سبق لنا القول انّ الصدفة والنظام على طرفي نقيض . فانّ الصدفة ليست الّا الطبيعة العمياء التي لا يصدر منها الّا الخراب والدمار

وان عُدنا الآن الى اعتبار هياكل الحيوانات والبشر لزمنا القول ان التشابه المذكور فيها مع اختلاف انواعها البالغ انّما هو اعظم دليل على العقل الالهي السامي الذي ابدعها فوسمها بسمتَي الوحدة والتنوّع

هذا وقد اقرّ زعماء مذهب النشوء والتحوّل ان اكبر داعٍ ساق بهم الى القول برأيهم انّما هو ما قصدوهُ من نفي الخالق اذ رأوا في كلّ الكائنات سمة تعالى وعظمتهُ الالهيّة فظنّوا ان مذهبهم يُغنيهم بمتناهم وهيهات!

وخلاصة القول في مدّعي الدرويينيين عن تشابه الهياكل الحيوانيّة والبشريّة انّنا لا ننكر ذلك الشبه الذي يُرى في كافّة طبقات الحيوانات ذات السلسلة الفقاريّة من حيث هيئة تلك الهياكل العموميّة الّا انّ مع ذلك الشبه ايضاً اختلافات لا يُحصيها العدد في كلّ دقائق كيانها كما لحظ ذلك ارباب النشوء والترقي عينهم مع اقرارهم بانهم لم يجدوا سنداً لذلك التحوّل المزعوم . والدليل على قولنا انّ اصغر العظام التي يجدها الطبيعيّون تكفيهم للدلالة على صنف الحيوان ونوعهِ وتركيبهِ لعلمهم بخواصّ كلّ عضو واختلافهِ في كلّ نوعٍ

ولو اردنا ان نتتبّع كلّ قسم من هذه الهياكل لألحقنا السأم بالقرّاء وكفى ذكر ما يأتيهِ دروين من المضحكات في شرح هذه المميّزات كقولهِ مثلاً عن القرد كيف اتّصل الى حذاقة العمل بيدهِ وتغيير هيئة رجليهِ مع ما قصدهُ عمداً من التغيرات

العديدة في بدنهِ ليقوم منتصباً وكلّ ذلك اوهام لا وجود لها الّا في مخيّلة دروين الذي يُعير القرد مسحةً من عقلهِ وكان الاولى بهِ ان يخصّها بتأييد الحقائق الراهنة فلا يغوي الناس بمثل هذه التّرهات . فليعلم الدروينيّون العلم اليقين انّ القرد ولو امكنهُ ان يقصد الحصول على غاية معلومة من المستحيل ان يغيّر شيئاً من هيئةِ جسمهِ ولو شاء ان يجعل مثلاً ليديهِ او لرجليهِ وجهةً ما او تركيباً آخر في عظامهما لعجز عن ذلك . وقس عليهِ بقيّة الحيوانات

وخلاصة القول انّ لا شيْ يحوجنا لدى نظرنا التشابه في مياكل الحيوانات المختلفة ان نقول بانّها لشأت عن بعضها بالتحوُّل وعلى خلاف ذلك نجد في هذا الشبه داعياً جديداً لتمجيد الخالق والصراخ مع النبيّ : « أيها الرب الاله ما اعجب اسمك في كلّ الارض . . . انك بكل حكمة وقياس ونظام قد ابدعت كلّ المخلوقات »

(التتمّة لعدد قادم)

شهيد الاستانة

الكاهن غوميداس الارمني الكاثوليكي

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

احرزت الكنيسة الكاثوليكيّة لها فخراً باهراً ومجداً اثيلاً في ٢٥ تشرين الاوّل (١ من السنة ١٧٠٧ في عاصمة الدولة العثمانيّة باستشهاد احد الكهنة الارمن الكاثوليك المدعو غوميداس كرجيان وشى بهِ الارمن الغريغوريّون الى عليّ باشا الجوربلي مدّعين لارتدادهِ الى الكثلكة بانّهُ دخل في دين الفرنج ودفعوهُ بالرشوة الى ان يقضي عليهِ بالاعدام فعرض عليهِ الاسلام لينجو من الموت فأبى وثبت على دين الكنيسة البطرسيّة فقُتل بقطع هامتهِ لكنّ موتهُ اناله ذكراً طيّباً لدى مواطنيهِ

١) وذلك بمقتضى الحساب الشرقيّ القديم الموافق لليوم الخامس من تشرين الثاني